الفكر التربوي عند ابن الجوزي

د/ لافي خليفة سالم العازمي

الأستاذ المساعد بكلية التربية الأساسية
قسم الدراسات الإسلامية الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب
بدول الكويت

٢٠٢٢م

الفكر التربوي عند ابن الجوزي

لافي خليفة سالم العازمي

قسم الدراسات الإسلامية، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب كلية التربية الأساسية ، الكويت.

البريد الإلكتروني: Lafi Khalifa@gmail.com

ملخص :

تضمنت هذه الدراسة التعريف بابن الجوزي تعريفًا تفصيليًا، ثم تطرقت إلى بيان أهمية التربية وأهمية الفكر التربوي، ثم تناولت العملية التربوية لدى ابن الجوزي وكشف بعض ملامح المحتوى التربوي لديه، وفي الأخير تناولت عدة مبادئ تربوية نادى بها ابن الجوزي مع المقارنة أحيانًا بينها وبين المبادئ التربوية الحديثة.

الكلمات المفتاحية : الفكرالتربوي، ابن الجوزي، المبادئ التربوية، أهمية الفكر التربوي، أهمية التربية.

Educational thought of Ibn al-Jawzi

Lafi Khalifa Salem Al-Azmi.

Department of Islamic Studies, Public Authority for Applied Education and Training, College of Basic Education, Kuwait.

E-mail: Lafi Khalifa@ gmail.com

Abstract:

This study included a detailed introduction to Ibn al-Jawzi, Then she touched upon the importance of education and the importance of educational thought, Then I dealt with Ibn al-Jawzi's educational process and revealed some of the features of his educational content, Finally, it dealt with several educational principles advocated by Ibn al-Jawzi, sometimes comparing them with modern educational principles.

keywords: Educational thought, Ibn al-Jawzi, Educational Principles, the Importance of Educational Thought, the Importance of Education.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، وصلي الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

استغرقت حياة ابن الجوزي معظم القرن السادس عشر، ما بين سنة عشر وخمس مائة إلى سنة سبع وتسعين وخمسن مائة، وظهر في هذه الفترة الكثير من الفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وذلك بشهادة ابن الجوزي نفسه عندما قسم المجتمع إلى سلاطين يرى أن أكثرهم يسعى في تحصيل الأموال بطرق غير مشروعة، وإلى علماء وافقوا السلاطين بسبب تردي أوضاعهم الاقتصادية، وإلى تجار دخلوا في عقود فاسدة، وإلى عوام منغمسين في الفواحش وتاركين لبعض الفرائض مثل: الزكاة(١).

وكان لهذا الانحلال ارتباط شديد بغياب العملية التربوية، بكل عناصرها التربوية، بالأخص المحتوي التربوي، والذي كان يتضمن مفاهيم إسلامية غير صحيحة، ناجمة عن الجهل بالمنهج الإسلامي مثل: مفهوم الزهد، ومفهوم العلم، ومفهوم الوعظ، ومفهوم الوجود، ولأجل ذلك ساهمت هذه المفاهيم المشوهة في انحراف العملية التربوية عن خط سيرها الصحيح، فظهر بسببها ذلك الانحلال الاجتماعي.

وقد صور ابن الجوزي الدور السيء للقائمين على العملية التربوية في زمنه بصورة مسحية عندما ذكر أن العباد في عصره انقسمت إلى فريقين فقال: "أما صحيحوا القصد منهم فعلى غير الجادة في أكثر عملهم، وضعوا كتبًا.. يأمرون فيها بأشياء تخالف الشريعة... وأما من ساء قصده فمن نافق لاجتلاب الدنيا، وأما العلماء... فأكثرهم على غير الجادة مقصودهم صورة العمل لا العمل به... وأما الوعاظ فمجالسهم أصبحت مجالس طرب حيث ينشدون بتطريب أشعار مجنون ليلى، فيصفق هذا، ويخرق ثوبه هذا"(٢).

(١) الخاطر: ابن الجوزي، ص٣٩٦.
(٢) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٠٧.

ومن خلال وصف ابن الجوزي للأوضاع الاجتماعية السابقة يمكن أن نستخلص أن ذلك كان سببًا دفع ابن الجوزي في أن يسعى جاهدًا طيلة حياته لإنقاذ العملية التربوية من خلال تنقية وتصحيح بعض المفاهيم التربوية، وسنرى من خلال هذا البحث بعض ملامح المنهج التربوي الذي سلكه، والأساليب المتنوعة التي استخدمها في الوصول إلى أهدافه التي رسمها، وقد حاولت تحليل بعض القضايا التربوية التي نادى بها ابن الجوزي، ومقارنتها أحيانًا بما ثبت من دراسات تربوية معاصرة.

وتعود أهمية البحث إلى عدة أمور من أهمها:

أولاً: من خلال دراسة الفكر التربوي بشكل عام يمكن التعرف على طرق التربية، ووسائلها، وأساليبها، واختيار الأنسب بعد تنقيحها، وإخضاعها للتجربة.

ثانيًا: الحاجة إلى تعلم المبادئ، والقيم، التي أنتجها المفكرون أمثال ابن الجوزي.

ثالثًا: الحاجة إلى تصحيح بعض المفاهيم التربوية، التي نادى إلى تصحيحها بعض المفكرين المسلمين أمثال ابن الجوزي.

رابعًا: ضرورة الكشف عن المفاهيم التربوية الإسلامية، وتقديمها للمختصين، حتى يتبين دور الحضارة الإسلامية في دفع العملية التربوية إلى الأفضل.

خامسًا: ضرورة الكشف عن النظريات التربوية الإسلامية لدى المفكرين الإسلاميين، والتعرف على حقيقتها، وعلى القواعد والمبادئ التي قامت عليها، من أجل الاستفادة منها في بناء فكر تربوي جديد.

سادسًا: الحاجة إلى تطوير أو تجديد فكر تربوي إسلامي يتطلب رصد تطوراته في الرؤية والواقعية، من خلال دراسة حركة الفكر التربوي الإسلامي.

وأما أهداف هذه الدراسة فمن أهمها:

أولاً: بيان بعض ملامح الفكر التربوي عند ابن الجوزي.

ثانيًا: بيان أن الوعظ نمط من الأنماط التربوية، لكن يحتاج إلى ممارسة طويلة حتى يؤتي ثماره التربوية بعد توافر مؤهلاته التربوية الأخرى.

ثالثًا: بيان دور ابن الجوزي في النهوض بالمهمة التربوية في عصره، والتزامه بها طيلة حياته.

رابعًا: المقارنة أحيانًا بين بعض ما توصل إليه ابن الجوزي من أفكار تربوية وبين الأفكار التربوية الحديثة.

خامسًا: محاولة كشف بعض القواعد والمبادئ التي قامت عليها نظرية ابن الجوزي التربوية.

وقد قسمت الدراسة إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بابن الجوزي.

المبحث الثاني: الفكر التربوي عند ابن الجوزي وتناولت فيه المطالب التالية: الأول في الفكر التربوي وأهميته، والثاني في العملية التربوية عند ابن الجوزي، والثالث في المحتوى التربوي عند ابن الجوزي.

والمبحث الثالث: في بعض المبادئ التربوية عند ابن الجوزي وتناولت فيه المطالب التالية: الاول: قيمة الحقيقة. الثاني: الوقت. الثالث: الفوارق الفردية. الرابع: القدرة العقلية. الخامس: الدافعية. السادس: إصلاح المزاج. السابع: الجمع بين العلم والعمل.

وأما المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة فيتلخص في الخطوات التالية:

أولاً: توفير النصوص المتعلقة بكل مبحث على حده.

ثانيًا: التحليل النقدي لبعض النصوص.

ثالثًا: المقارنة في بعض المواضع.

رابعًا: الاختصار لبعض المباحث المهمة.

خامسًا: استخلاص بعض النتائج.

المبحث الأول

التعريف بابن الجوزي

أولاً: اسمه ونسبه ومولده:

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد، ويرجع نسبه إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، القرشي التيمي البغدادي الحنبلي(١).

وجعفر الذي هو جده التاسع قال عنه ابن دحيه: "هو الجوزي نسب إلى فرضة من فرض البصرة يقال لها جوزه، وقيل:كان في داره جوزه لم يكن بواسط جوزه سواها"(٢)، والفرضه هي الثلمه تكون في النهر، وهي في الأصل الخلل في الحائط(٣).

ولد ابن الجوزي سنة تسع أو عشر وخمسمائة من الهجرة(٤)، ومات أبوه وله ثلاث سنين، فرَّبته عمته، ولما ترعرع حملته إلى خاله الحافظ ابن ناصر، فاعتنى به وأسمعه كثيرًا(٥).

وكان ابن الجوزي "لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات والنغمات، وكان يراعي حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، وما يفيد عقله قوة وذهنه حدة، وكانت فيه شبه عزلة تامة عن الناس، فكان لا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة أو المجلس"(٦).

---

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١٣٤٢/٤.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٦٦/٢١
(٣) الرازي: مختار الصحاح ٥٠/١
(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٦٦/٢١
(٥) انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ ١٣٤٢/٤
(٦) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١٣٤٤/٤

ثانيًا: شيوخه وتلاميذه:

تقدم أن عمته حملته إلى الحافظ ابن ناصر، وأنه اعتنى به وأسمعه الحديث، كما اعتنى بأمره ابن الزاغوني، وهو أحد شيوخه، وعلمه الوعظ، وقد بلغ مجموع شيوخه الذين سمع منهم نيف وثمانون شيخًا، ومن أشهرهم أبو القاسم بن الحصين، والحسين بن محمد البارع، وعلي بن عبد الواحد الدينوري، وأبو الوقت الجزي، وغيرهم(١).

وأما تلاميذه فقد تتلمذ عليه ولده محيي الدين يوسف، وولده الكبير علي الناسخ، وسبطه الواعظ شمس الدين يوسف بن فرغلي الحنفي صاحب (مرآة الزمان)، وموفق الدين ابن قدامة صاحب كتاب (المغني) في الفقه الحنبلي، وابن النجار، وابن عبد الدايم، وغيرهم(٢).

ثالثًا: أقوال العلماء فيه:

قال فيه الذهبي: "وكان رأسًا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديعًا.. وكان بحرًا في التفسير، وعلامة في السير والتاريخ"(٣)، وقال الموفق عبد اللطيف في تأليف له: "كان كثير الغلط فيما يصنفه(٤)"، وقال الذهبي: "له أوهام"(٥)، ويعتذر له العلماء عن هذه الأوهام بأنه كان يفرغ من الكتاب ولا يراجعه، وبأن أكثر علمه من الكتب، ولم يكن يمارس فيها أرباب العلم كما ينبغي(٦).

رابعًا: مصنفاته ووفاته:

قال الذهبي: "وما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل"(٧)، وقد تميز ابن الجوزي بغزارة الإنتاج فصنّف في التفسير والحديث والتاريخ واللغة

(١) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٦٧/٢١.
(٢) انظر المصدر السابق ٣٦٧/٢١.
(٣) الذهب: سير أعلام النبلاء ٣٦٧/٢١.
(٤) مصدر سابق نفس الجزء والصفحة.
(٥) مصدر سابق نفس الجزء والصفحة.
(٦) انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ ١٣٤٧/٤.
(٧) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١٣٤٤/٤

والطب والفقه والوعظ وغيرها من العلوم، ومن أشهر تلك المصنفات (زاد المسير) في التفسير، و(نواسخ القرآن) في علوم القرآن وكتابه (صفوة الصفوة) في تراجم الزهاد والصالحين، و(تلبيس إبليس) و(التذكرة) في الوعظ، و(ذم الهوى) و(صيد الخاطر)[١].

وقد توفي ابن الجوزي ليلة الجمعة، بين العشاءين، الثالث عشر من رمضان، سنة سبع وتسعين وخمسمائة بعد مرض استمر به خمسة أيام، وفي يوم جنازته غلقت الأسواق، وحضر جنازته خلق عظيم[٢].

(١) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٦٨/٢١.
(٢) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٧٧/٢١.

المبحث الثاني

الفكر التربوي عند ابن الجوزي

المطلب الأول

الفكر التربوي وأهميته

أولاً: مفهوم التربية:

كلمة (تربية) وإن كانت كلمة شائعة، وكثيرة الاستعمال، غير أن مدلولها العلمي يختلف عن المدلول الشائع، فإن مدلولها علميًا أوسع وأشمل، لذلك لابد من معرفة مدلولها من جهة اللغة، ومن جهة اصطلاح التربويين، حتى يتبين شمولية المدلول العلمي لها.

التربية اسم مشتق من الرب، والرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والمنعم[١]، والفعل (ربا) أي زاد ونما، و(تربى) بمعنى نشأ وتغذَّى وتثقف و(رباه) أي نمى قواه العقلية والجسدية والخلقية، ومن الواضح أن المعنى اللغوي لمشتقات كلمة (التربية) يدور على المعاني التالية: النمو، والزيادة، والتغذية، والتنشئة، والتثقيف[٢].

وأما مدلولها اصطلاحًا فإنه يختلف تبعًا لاختلاف الدراسات النفسية والاجتماعية في نظرتها للفرد والمجتمع، وتبعًا لاختلاف الآراء الفلسفية حول مفهوم العملية التربوية، وطرقها، ووسائلها، وأهدافها.

ولكثرة مدلولاتها الاصطلاحية التربوية فإني اقتصر على ذكر أشهرها، وهي كالتالي:

(١)التربية هي تغذية الجسم وتربيته بما يحتاج إليه من مأكل ومشرب لينمو قويًا قادرًا على مواجهة تكاليف الحياة.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، مادة (ر ب ب)، ص٢٢٨.
(٢) انظر: أصول التربية: د. عبد الغني العمراني، ص١٦-٢١.
أصول التربية الإسلامية: د. خالد الحازمي، ص١٧-١٨.

(٢)التربية هي العملية المقصودة أو غير المقصودة التي يحددها المجتمع حسب ثقافته، لتنشئة الأجيال الجديدة، بما يجعلهم على علم ووعي بوظائفهم.

(٣)هي عملية تطبيع مع الجماعة، وتعايش مع الثقافة.

(٤)هي العمليات التي يتفاعل معها الإنسان المتعلم من أجل النهوض بقواه[١].

ومن الواضح أن هذه التعريفات تكاد تكون مشتركة في أهداف محددة، وهي على وجه الاختصار كالتالي:

(١)تكوين مواطن صالح يمتثل لنظام المجتمع بمحض إرادته.

(٢)تنمية الفرد في جوانبه: الجسدية، والعقلية، والخلقية، والحركية، وغيرها.

(٣)إيجاد شخصية متميزة للفرد، من خلال توجيه سلوك الأفراد.

ثانيًا: مفهوم التربية الإسلامية:

هناك اختلاف في تحديد مفهوم التربية الإسلامية كمصطلح علمي، ورغم اختلاف الباحثين، إلا أنهم اتفقوا على المضمون العام في تعريفها، وهو أن التربية الإسلامية يجب أن تستمد توجيهاتها وفلسفتها وغاياتها من الشريعة الإسلامية[٢].

ومن أحسن المفاهيم الشاملة والتي وضعت في الاعتبار الاستمداد الشرعي، هو ما قيل من أنها تنشئة وتكوين إنسان مسلم متكامل من جميع نواحيه المختلفة: الجسدية، والصحية، والعقلية، والاعتقادية، والروحية، والأخلاقية، والإدارية، والإبداعية، في جميع مراحل نموه، وذلك في ضوء المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام، وفي ضوء أساليب التربية التي بينها[٣].

ثالثًا: أهمية التربية:

تعتمد كثير من الشعوب على التربية في تنميتها الاجتماعية والثقافية، وذلك لأنها ضرورة تساعد على تقوية التماسك الاجتماعي، والوحدة الوطنية، كما أنها

---

(١) انظر: أصول التربية: د. طارق عبد الرؤوف عامر، ص٤٩-٥٢.
أصول التربية: د. عبد الغني العمراني، ص٢٠.
أصول التربية الإسلامية: د. خالد الحازمي، ص١٧-١٨.
(٢) انظر: أصول التربية: د. خالد الحازمي، ص١٧-١٨.
(٣) انظر: أصول التربية: د. عبد الغني العمراني، ص١٥٢.
أصول التربية الإسلامية: د. خالد الحازمي، ص١٧-١٨.

ضرورة ثقافية تعمل على استمرار ثقافة المجتمع، وتجديدها، ونقلها عبر الأجيال المتعاقبة(١).

وتظهر أهمية التربية في تحقيق ما يلي:

(١)تنمية ميول الفرد واتجاهاته السلوكية.

(٢)تذويب الفوارق بين طبقات المجتمع، فهي دعامة قوية في تحقيق أي تحول اجتماعي يهدف إلى إذابة الفوارق.

(٣)التربية طريق إلى اكتساب القيم، والاتجاهات، والعادات الخلقية الحميدة.

(٤)التربية عامل من عوامل التطور في المجتمعات، تدفع دائمًا إلى التبديل، وإلى الأحسن(٢).

رابعًا: أهمية الفكر التربوي:

إذا كان الفكر يقصد به أفعال الإنسان القائمة على التأمل، والإدراك، والاستنتاج، والقدرة بعد القياس على الاختيار في المشاكل والمسائل، فإن الفكر التربوي عبارة عن عملية يقوم الباحث من خلالها بدراسة آراء المفكرين والتربويين فيما ذكروه في مؤلفاتهم حول العملية التعليمية أو التربوية، ووسائلها، وأهدافها، وفلسفتها(٣)، فهي تساهم في معرفة التراث التربوي، وبما يحتوي عليه التراث الإنسان من موروثات أو نشاطات فكرية، قد تحل العديد من المشكلات الحالية التي تواجه المجتمع(٤).

وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الباحثين يرى أن مرجع الأزمات التربوية هو انخفاض فعاليات الفكر التربوي، في كونه ما يزال يتسم بأفكار متناقضة، أو اتسامه بأفكار سطحية(٥)، كما تظهر الدراسات إلى أن ضعف فعالية الإنتاج الفكري في المجال التربوي، يعود إلى غياب النقد والتحليل والذي يساعد في معرفة مدى

---

(١) انظر أصول التربية: د. طارق عبد الرؤوف عامر، ص٥٩-٦٠
أصول التربية: د. عبد الغني العمراني، ص٢٢.
أصول التربية الإسلامية: د. خالد الحازمي، ص١٥٨.
(٢) انظر أصول التربية: د. طارق عبد الرؤوف عامر، ص٥٩-٦١.
(٣) انظر أصول التربية: د. طارق عبد الرؤوف، ص٣٦ وما بعدها.
وانظر إعداد المعلم في الفكر التربوي الإسلامي: أمين محمد أمين، ص١١.
(٤) انظر أصول التربية: د. طارق عبد الرؤوف، ص٣٦ وما بعدها.
(٥) انظر مصدر سابق، ص٣٦ وما بعدها.

مساهمته في رفع مستوى الواقع التعليمي والتربوي، ليواكب الفكر التربوي العالمي، ومن المعلوم أن النقد والتحليل هما من أبرز أعمال المفكرين التربويين(١).

المطلب الثاني

العملية التربوية عند ابن الجوزي

العملية التربوية هي مجموعة منظمة ومنسقة من الأنشطة والإجراءات التي تهدف إلى تلبية الاحتياجات التربوية، وذلك ضمن الشروط والأهداف المخطط لها مسبقًا(٢).

والجدير بالذكر أن العملية التربوية عند الباحثين نوعان: أحدها تربية مقصودة، تأخذ شكلًا نظاميًا، وهي التي تكون في المدارس والمعاهد والجامعات، والنوع الآخر تربية غير مقصودة، وهي التي تؤدي دورها المساجد، أو القاعات المعدة لعقد مؤتمرات تربوية، أو الأسرة(٣).

وكانت التربية غير المقصودة بالمعنى السابق يمارسها العديد من المربين، وعلى رأس هذه القائمة الوعاظ أمثال ابن الجوزي، فلم تكن لدى ابن الجوزي مدرسة نظامية، وإنما كان يتخذ المسجد مكانًا لعقد مجالس الوعظ، أو الساحات الواسعة إذا كان الحضور كثيفًا، ولم تكن الأنشطة التربوية التي يمارسها، أو المشكلات التربوية التي كان يعالجها، إلا جهدًا شخصيًا ذاتيًا، حسبما يراه صوابًا، ولم تكن تتسم بصبغة رسمية.

ويذكر ابن الجوزي بعض الأسباب التي دفعته إلى عدم اتخاذ المدارس النظامية مكانًا للتربية، وهذه الأسباب عند التأمل تعود إلى عيوب في المحتوى التربوي، فيقول: "وإن بناء المدارس اليوم مخاطرة إذ قد انعكف أكثر المتفقهين على علم الجدل، وأعرضوا عن علوم الشريعة، وتركوا التردد إلى المساجد"(٤).

(١) انظر أصول التربية: د. طارق عبد الرؤوف، ص٣٦ وما بعدها.
(٢) انظر أصول التربية: د. طارق عبد الرؤوف، ص١٥٠.
(٣) انظر مصدر سابق، ص١٥٨-١٥٩.
(٤) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٣٦٦.

وما من شك في أن العملية التربوية شاقة الممارسة، وأن مشقتها تعود إلى الجهد الكبير المبذول من أجلها، ابتداء من إعداد المحتوى ومكوناته، إلى اختيار الطرق والأساليب الصالحة، ثم النظر في مدى مطابقة تلك الطرق للأهداف التربوية المنشودة، والتي تم التخطيط لها في بداية العملية التربوية.

وقد أشار ابن الجوزي إلى المشقة التي يعانيها في الوعظ، وذلك حين يحدثنا عن ميل نفسه إلى العزلة وترك الوعظ، فيقول: "مازالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلس الوعظ وتوبة التائبين... الزاهدين إلى الزهد والانقطاع عن الخلق والانفراد بالآخرة[١]، ثم يذكر بعض أسباب ذلك، وهو كراهية النفس للمجهود الكبير والصعوبات التي تواجهها أثناء الوعظ، فيقول: "وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين: أحدهما: حب البطالة لأن الانقطاع عندها أسهل...."[٢].

وينبه ابن الجوزي إلى أهمية العملية التربوية في توجيه الأفراد وإعدادهم، ويصرح بأن التربية هي أخص وظائف الأنبياء، وأن المهمة التربوية في الأصل هي مهمة كل مسلم، وأن من تخلى عنها، واعتقد أن الإسلام هو الاكتفاء بالعبادة، أو الجلوس في المسجد، فقد ابتدع وأحدث أمرًا لم يكن معهودًا في عصر الصحابة، فيقول: "فعليك بالنظر في الشرب الأول... الشرب المقدم، وهم الرسول وأصحابه فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة، وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر"[٣].

وقد قصد ابن الجوزي من هذا النص التأكيد على أن العملية التربوية هي المهمة الأشرف على وجه الإطلاق، فإن الأنبياء هم أشرف الخلق، فإذا كان من أخص مهماتهم تربية الأفراد وتأهيلهم، فيلزم من ذلك أن تكون التربية هي المهمة الأشرف مطلقًا.

إن الآثار التربوية الإيجابية التي تحدث في مجالس ابن الجوزي الوعظية لدلالة واضحة على أن الوعظ انطلاقة تربوية ناجحة، فإن قيمة الأشياء تتجلّى

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٣٤.
(٢) مصدر سابق، ص١٣٤.
(٣) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٣٤.

بالآثار والنتائج الحسنة التي تحصل بسببها، فحين يحدثنا ابن الجوزي عن الأعداد الكثيرة من فئة الشباب التائبين والتاركين لطريق الشيطان، بالبكاء والندب، نستطيع القول بأن الوعظ كان شكلًا متميزًا من أشكال العمليات التربوية، ويرى ابن الجوزي أن تحصيل هذه المطالب التربوية هي التي جعلت الشيطان يوسوس له في الميل إلى العزلة وترك الوعظ، فيقول: "إن الشيطان يرى أنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يبكون، ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون، ويقطعون شعور الصبا، وربما اتفق خمسون ومائة"(١).

وينتقد ابن الجوزي بشدة الظاهرة التي انتشرت في زمانه، وهي انقطاع مجموعات من الصالحين في المساجد، تعتزل الناس، وتترك مخالطتهم، ويبين أن هذا السلوك لو جرى عليه العلماء لكان فيه تعطيلًا للعملية التربوية، فيذكر أنه في يوم من الأيام دخل إلى جامع الرصافة، ورأى تلك الظاهرة، فوصف ما رآه قائلًا: "رأيت أقوامًا قد جاوروا فيه، فسألت أحدهم: منذ كم أنت هاهنا؟ فأومأ إلى قريب من أربعين سنة، فرأيته في بيت كثير الدرن والوسخ"(٢)، ثم يخاطب نفسه قائلًا: "اعلمي أن هؤلاء على ضربين، منهم من يجاهد نفسه في الصبر على الأحوال، فتفوته فضائل المخالطة لأهل العلم والعمل، وطلب الولد، ونفع الخلق... ثم منفعة العلم معروفة وزهد الزاهد لا يتعدى عتبة بابه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لئن يهدي الله بك رجلًا خير لك مما طلعت عليه الشمس"(٣).

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٣٢.
(٢) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٣٢.
(٣) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٣٥.

المطلب الثالث

المحتوى التربوي عند ابن الجوزي

العملية التربوية عبارة عن عدة عناصر هي المربي والمتربي والمحتوى التربوي والأسلوب والأهداف، وهذه العناصر تتفاعل فيما بينها، وهذا التفاعل هو الأساس التي تعتمد عليه العملية التربوية في إنجاز وتحقيق الأهداف التربوية المطلوبة، ويعتبر المحتوى التربوي من أهم هذه العناصر، فكان لابد من التعرف على هذا المحتوى وبيان بعض ملامحه.

المحتوى التربوي هو مجموعة من المعارف والقيم والمهارات، والتي باكتسابها يمكن تحقيق الأغراض التربوية، لكن هذه المعارف والقيم والمهارات، يشترط أن تكون ذات طابع خاص، لأنه إن لم يكن من شأنها تحقيق المطالب التربوية على نحو شامل فإنه لا اعتبار لها، ولذلك نجد ابن الجوزي ينبه إلى أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار حال إعداد المحتوى التفرقة بين نوعين من المعارف: نوع يسميه معارف صورية، وآخر يسميه معارف حقيقية، ويؤكد على أن الأغراض التربوية لا يمكن أن تحقق إلا إذا كان المحتوى التربوي مشتملًا عليهما كعنصرين.

ويحذر من أن التغافل عن تحصين المحتوى التربوي بالمعارف الحقيقية يولد نتائج سلبية، ويستدل بالسلوكيات المنحرفة الصادرة من القراء والمحدثين والفقهاء في زمانه، ويرى أن السبب في هذا الانحراف هو تغافل المتعلمين أو تفريطهم بعدم الجمع بين العناصر الصورية والعناصر الحقيقية للمحتوى، ولذلك نراه يقول عن القراء: "فالقارئ مشغول بالروايات، ويرى أن المقصود نفس التلاوة، ولا يتلمح عظمة المتكلم، ولا زجر القرآن، ووعده، وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص بالذنوب"[(١)]، ويقول في شأن المحدثين: "والمحدث يجمع الطرق، ويحفظ الأسانيد، ولا يتأمل مقصود المنقول، ويرى أنه قد حفظ على الناس الأحاديث، فهو يرجو بذلك السلامة، وربما ترخص في الخطايا، ظنًا منه أنه ما فعل في الشريعة يدفع عنه"[(٢)]، وقال قريبًا من ذلك أيضًا في شأن الفقهاء[(٣)].

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٤٤٤.
(٢) مصدر سابق، ص٤٤٤.
(٣) مصدر سابق، ص٤٤٤.

ومن الملاحظ أن هذه النصوص قد تضمنت إشارة واضحة من ابن الجوزي على ضرورة رسم محتوى تربوي يتضمن عناصر متكاملة يكون لها تأثير عميق في نفس المتعلم، فمن أجل ذلك وضع ملامح أولية للمحتوى الذي يجب أن يرتكز عليه علم القراءات، وهو أحد علوم القرآن، من أن المتعلم ينبغي أن يجمع بين العناصر التالية: ضبط الروايات والقراءة الصحيحة، وهي عناصر صورية، وبين ملاحظة عظمة المتكلم، والشعور الحقيقي بزواجر القرآن ووعده ووعيده، وهي عناصر حقيقية، ويرى أن القارئ الذي يجمع بينها هو القارئ الحقيقي، وقس مثل هذا في الحديث والفقه وسائر العلوم الإسلامية.

ويعترف ابن الجوزي بأنه يجد نفسه تكتفي أحيانًا بالعناصر الصورية، فيوجه لها اللوم، ويذكرها بما ينبغي أن تلتزم به من الجمع بين الصورة والحقيقة، فيقول: "لما رأيت نفسي في العلم حسنًا فهي تقدمه على كل شيء ... إلا إني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها، فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين القلق؟ أين الحذر..."[١]، ثم يذكرها بما كان عليه حال الرسول، والخلفاء الراشدين، وحال الصالحين أمثال الحسن البصري، وسعيد بن المسيب[٢]، وبأنهم كانوا يطلبون المعارف الصورية من أجل الوصول إلى المعارف الحقيقية، ثم يحدثنا ابن الجوزي عن بعض صور الخلل في المحتوى التربوي الوعظي، فيقول: "تأملت أشياء تجري في مجالس الوعظ، يعتقدها العوام قربة وهي منكر وبعد... والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى، فيصفق هذا، ويخرق ثوبه هذا"[٣].

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٥٨.
(٢) مصدر سابق، ص٥٨.
(٣) مصدر سابق، ص١٠١.

المبحث الثالث

بعض المبادئ التربوية عند ابن الجوزي

المطلب الأول

قيمة الحقيقة

سعي البشر منذ القدم إلى إيجاد الحقيقة عبر ثلاثة طرق رئيسية: الدين، والفلسفة، والعلم، ولكل واحد منها منهجيته المتميزة في اكتشاف الحقيقة، وتعتبر الحقيقة من أهم المفاهيم الفلسفية التي أشغلت الباحثين والمفكرين والفلاسفة قديمًا وحديثًا، ومازالت تفرض ذاتها في البحث، نظرًا لقيمتها أخلاقيًا ومعرفيًا ووجوديًا، ولكن في الفكر الإسلامي الحقيقة نوعان: ربانية، وهي الأصل، ويكون إدراكها عن طريق النص والعقل، ودنيوية وإدراكها يتم عن طريق العقل والتجربة معًا، والمقصود في هذا البحث الحقيقة الربانية، وبيان موقف ابن الجوزي منها.

وتجدر الإشارة إلى أن الحقيقة في بعض الأحيان يحول دون الوصول إليها موانع، منها ما يرجع إلى الباحث نفسه، ومنها ما يرجع إلى أمر خارجي، ويفيدنا ابن الجوزي في أثناء حديثه عن الحقيقة أن الإعجاب بالنفس هو أحد هذه الموانع، فيقول: "إن أفضل الأشياء التي تزيد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه، فظنه كافيًا استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا من الاستفادة"(١)، ويقول في موضع آخر: "المصيبة العظمى رضى الإنسان عن نفسه، واقتناعه بعلمه، وهذه محنة، قد عمت أكثر الخلق"(٢).

ويذكر ابن الجوزي إلى أن من الموانع أيضًا التقليد أو عدم الصدق في طلب الحقيقة، فيقول في شأن بعض المذاهب الإسلامية: "وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه، إما لأنه مذهب أبيه وأهله، أو لأنه نظر نظرًا أول، فرآه صوابًا ولم ينظر

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١١٣.
(٢) مصدر سابق، ص٤٦٧.

فيما يناقضه..."[١]. ويقول في شأن اليهود والنصارى: "... فترى اليهودي أو النصراني يرى أنه على الصواب، ولا يبحث، ولا ينظر في دليل نبوة نبينا ن"[٢]، وقال في موضع آخر: "فاليهود والنصارى بين عالم قد عرف صدق نبينا لكنه يجحد إبقاء لرئاسته فهذا إمعان، وبين مقلد لا ينظر بعقله فهذا مهمل.... وبين ناظر منهم لا ينظر حق النظر"[٣].

وفي هذه النصوص إشارة من ابن الجوزي إلى أن الهداية البشرية والأخذ بيدها إلى الحقيقة لا تحصل إلا بعد النظر في الموانع والاجتهاد في إزالتها، فإنه مع وجود هذه الموانع لا يمكن الوصول إلى الحقائق ومنها الحقيقة الربانية.

وفيها إشارة كذلك إلى أنه ليس بالضرورة إذا كانت النتائج التربوية سلبية أن تكون الوسائل أو الأساليب التربوية المستخدمة فيها سلبية أيضًا، لكنه دلالة قاطعة في حال استخدام أساليب تربوية جيدة وكانت النتائج سلبية على أن ثمة موانع حالت دون تحقيق نتائج إيجابية، ومن المعلوم أن ابن الجوزي له تجربة تربوية تطبيقية واسعة، فحين يذكر هذه الموانع في مواضع عديدة من مؤلفاته، فإنه إيحاء بخطورة هذه الموانع، وبناء عليه فإنه يلزم اشتقاق نظرية تربوية تتناول دراسة الموانع التربوية، كالتقليد والعنصرية والإعجاب بالرأي، والاستفادة من ابن الجوزي في بيان حقائق هذه الموانع، وطرق معالجتها، وكيفية التخلص منها.

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٤٦٧.
(٢) مصدر سابق، ص٤٦٧.
(٣) مصدر سابق، ص٣٧٣.

المطلب الثاني

قيمة الوقت

الوقت هو مقياس لتطور الأحداث، بدءًا من الماضي ومرورًا بالحاضر نحو المستقبل، وبالترتيب بشكل متتابع، وبصورة دائمة، ونظام ثابت، وباتجاه واحد، دون عودة إلى الماضي، ويستمد الوقت أهميته من استحالة القدرة على إرجاعه إلى الوراء بمجرد انقضاءه، ولأهميته البالغة كان من الضروري الاجتهاد في إدارته وتنظيمه، والاستفادة منه بأقصى الحدود، ومن أجل الوصول إلى ذلك ينبغي تحديد الأولويات، بما يدفع لإنجاز عدد من المهمات، بوقت وجهد أقل، ولابد من التخلص من مضيعات الوقت، واتخاذ قرارات حاسمة إزاء كل ما يتسبب في هدر الوقت، يقول ابن الجوزي: "ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربه، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل"(١).

وقد أقسم الله تعالى بالعصر، وهو جزء من الوقت، فقال تعالى: [والعصر]، ولا يقسم سبحانه وتعالى بشيء من مخلوقاته إلا إذا كان له قدر عظيم، وورد في السنة النبوية عدة أحاديث تدل على قدر الوقت وأهميته، منها ما رواه ابن عباس قال: قال رسول الله ن: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ"(٢)، والمغبون مشتق من الغبن، وهو الضعف في الرأي(٣)، ومنها ما رواه أيضًا ابن عباس قال: قال رسول الله ن: "اغتنم خمسًا قبل خمس..."(٤)، فذكر منها: "وفراغك قبل شغلك"، فالأمر باغتنام الفراغ فيه إشارة واضحة على أهمية الوقت.

وتحدث ابن الجوزي عن تفريط الناس في زمانه بالوقت، فقال: "رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا، إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دجله، أو في الأسواق"(٥)، وشبه حال هؤلاء بجماعة في سفينة تسير في البحر، فقال: "فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم وما عندهم خبر ...."(٦)، وقصد

---

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٢٢.
(٢) رواه الترمذي: سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٠٤.
(٣) مختار الصحاح، مادة (غ ب ن)، ص٤٦٨.
(٤) صحيح الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، حديث رقم ١٠٧٧.
(٥) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٤٥.
(٦) مصدر سابق، ص١٤٥.

ابن الجوزي من هذا التشبيه أن الإنسان إذا أهدر وقته فقد سعى في هلاكها كحال هؤلاء المتحدثين على ظهر السفينة يقضون فراغهم فيما لا فائدة فيه.

ويذكر في موضع آخر أن تضييع الأوقات صار من العادات المتبعة في زمانه، فيقول: "رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان..."[١].

ويبين ابن الجوزي أن هذه العادات السيئة لم تكن على عهد السلف الصالح، ويستشهد بآثار تدل على ذلك، فيقول: "وكان القدماء يحذرون من ذلك قال الفضيل: أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة.."[٢]، قال: "ودخلوا على رجل من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك، فقال: أصدقكم كنت أقرأ، فتركت القراءة لأجلكم ..."[٣]. قال: "وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس، قال له رجل: قف أكلمك، قال: فأمسك الشمس"[٤].

ويرشد ابن الجوزي المتعلمين إلى الوسائل التي تساعد على الاستفادة من الوقت بأكبر قدر منه، فيذكر من ذلك العزلة، وقلة الأكل، فيقول: "والذي يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة مهما أمكن... وقلة الأكل، فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل..." [٥].

ويخاطب العلماء ناصحًا لهم بعدم التفريط بالوقت، حتى مع الأهل، وأن يجعل الواحد منهم للأهل وقتًا حين يخالطهم، وأن يختار مكانًا في بيته يخصصه لمكتبته، ولجلوسه خاليًا منفردًا، فيقول: "فإذا أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك، وكن معتزلًا عن أهلك... واجعل للقاء الأهل وقتًا"[٦].

ويوضح أن المقصد من هذه العزلة المؤقتة هو تفريغ الذهن أثناء طلب العلم، فيقول: "وليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك..."[٧].

---

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٤٨٩.
(٢) مصدر سابق، ص٤٨٩.
(٣) مصدر سابق، ص٤٨٩.
(٤) مصدر سابق، ص٢٢.
(٥) مصدر سابق، ص١٤٥.
(٦) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٢٣١.
(٧) مصدر سابق، ص٢٣١.

المطلب الثالث

الفوارق الفردية

يذكر الباحثون في علم النفس التربوي أنه بالرغم من تشابه أفراد الجنس البشري في مظاهر النمو المختلفة إلا أن الفروق فيما بينهم ثابتة، سواء كانت فروقًا: نفسية، أو عقلية، أو اجتماعية، أو انفعالية، أو لغوية، أو حركية[١].

وهذا يفرض على أهل الاختصاص مهمة التعرف على تلك الفروق، حتى يتمكنوا من تقديم أفضل الطرق والوسائل التربوية التي تساعد في تحقيق وإنجاز الأهداف المرجوة، وهذا بالتالي يسهل مهمتهم.

وقد أشار ابن الجوزي إلى وجود التباين والفروق بين الأفراد في مواضع عديدة من مؤلفاته، فمن أنواع هذه الفروق التي أشار إليها الفروق العقلية فذكر أن العقل يتفاوت، وأنه مثل الضوء في الظلمة: "فقد يقل[٢] عند أقوام فيكون كعين الأعشى... ويزيد فيكون كنور القبس، ويكون عند قوم كضوء الشمعة... وعند الكاملين كطلوع الشمس على عين زرقاء اليمامة"[٣]، وأشار إلى الفروق في فهم النصوص، فقال: "وأكثر تفاوت الناس في الفهوم، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الأصول والفروع"[٤].

وفي موضع آخر يؤكد على التفاوت في قوة الذاكرة، ويحذر من عدم مراعاة هذا التفاوت فيقول: "ومن الغلط تحميل القلب حفظ الكثير، أو الحفظ من فنون شتى، فإن القلب جارحه من الجوارح، وكما أن من الناس من يحمل المائة رطل، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلًا، فكذلك القلوب"[٥]، وكذا الخصائص الانفعالية فهي أيضًا تتفاوت من شخص إلى آخر، ويظهر هذا التفاوت بصورة أكثر وضوحًا في مجالس الوعظ، عندما يصور لنا ابن الجوزي اختلاف انفعالات الناس باختلاف

---

(١) انظر مبادئ علم النفس التربوي: د. عماد الزغول، ص٢٣٩.
أصول التربية: د. طارق عبد الرؤوف، ص٣٧ ، ١٤٣. علم النفس التربوي: د. عبد المجيد نشواتي، ص١٧-١٨.
(٢) أي العقل.
(٣) الثبات عند الممات: ابن الجوزي، ص٢٣.
(٤) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٥٠٠.
(٥) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٨٠.

أسبابه فيقول: "فإن من العوام من يعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر"[١].

ولا شك أن هذا يتطلب من الواعظ مراعاة ذلك بصناعة ماهرة، وتوفير مناخ يجمع مطالبهم، ليتحقق بذلك الحلول التربوية التي خطط لها في وقت سابق.

وتطبيقًا لمبدأ مراعاة الفروق بين الأفراد نجد ابن الجوزي يلجأ إلى أساليب تأخذ أشكالًا متنوعة، تتكيف مع هذه الفروق، فمثلًا حينما يتكلم عن الأسلوب الواجب اتباعه في وعظ السلاطين والملوك يصرح بأن توجيه سلوك مثل هذا النموذج يتطلب مراعاة خاصة، لها ارتباط شديد بالمفردات التي يتركب منها هذا التوجيه، مؤكدًا على وجوب إبعاد المفردات التي توحي بالحط من قدر السلطان ومنزلته، وضرورة توظيف الألفاظ التي تحمل في طياتها معاني الرفق واللين، فيقول في شأن ذلك: "وينبغي لمن وعظ سلطانًا أن يبلغ في التلطف، ولا يواجهه بما يقتضي أنه ظالم، فإن السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة، فإذا جرى توبيخ لهم كان إذلالًا، لهم وهم لا يحتملون ذلك"[٢]، ومجمل القول أن معرفة طبائع وخصائص الناس واعتبار التفاوت والفروق فيها من الأهمية بمكان، فإن تحقيق الأهداف التربوية المرغوبة يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمدى استعدادات تلك الخصائص.

أخيرًا أود أن أنبه إلى قضيتين تربويتين هامتين تطرق لهما ابن الجوزي، أما القضية الأولى فهي اعتقاده بالنتائج الطيبة لمخالطة الأذكياء والعقلاء[٣]، وبالتالي فإن تصنيف الطلاب في مجموعات متباينة من حيث الاستعدادات والقدرات العقلية يسمح للطلاب الأقل ذكاء فرصة التفاعل مع الطلاب شديدي الذكاء، وهذا التصنيف خير بكثير من تصنيف الطلاب إلى مجموعات متجانسة الذي نادى به بعض التربويين في العصر الحديث، أضف إلى ذلك أن تصنيف الطلاب إلى مجموعات متجانسة له آثاره الانفعالية، إذ أشارت بعض الدراسات الحديثة (مارتن وبافان) – عام ١٩٧٦ – إلى أن ذلك التصنيف يعزز مفهوم الذات لدى الطلاب المتفوقين في حين يترك آثارًا سيئة لدى مفهوم الذات عند الطلاب المتخلفين[٤]، وإن كانت مشكلة تصنيف الطلاب إلى مجموعات حسب ما يتمتعون

(١) مصدر سابق، ص١٠١.
(٢) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٤٠٩-٤١٠.
(٣) انظر الأذكياء: ابن الجوزي، ص٢٧.
(٤) انظر علم النفس التربوي: عبد المجيد نشواتي، ص٢٤٨.

به من قدرات واستعدادات مشكلة تربوية، وهي مدار نقاش وجدل طويلين في العصر الحديث[١]، إلا أن الصواب فيها هو تصنيفهم إلى مجموعات متباينة.

أما القضية الثانية فهي إشارته إلى وجود صلة قوية بين الأدب ولطافة البدن[٢]، وإلى وجود تلك الصلة أيضًا بين الذكاء أو الحفظ ومن بعض الصفات الجسمية مثل: الخلق المعتدل والبنية المتناسبة[٣]، وإن كان من المستبعد تسليم ذلك، ولو سلمنا جدلًا بوجود مثل هذه الصلة إلا أننا لا نسلم على أنها قضية طردية، فقد يتوافر الأدب في غليظ البدن، كثيف الأعضاء، وقد يتوافر الذكاء في مستوحش الخلقة،

إلا أن الأمر الأهم وهو الآثار التربوية السلبية لو صيّرنا المظهر الخارجي حكمًا أو معيارًا في التقييم العلمي أو الأدبي أو الاجتماعي فإننا نكون بذلك قد ابتعدنا عن صفة الموضوعية، وقد قال رسول الله ن: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"[٤]. وقد أفاد بعض الباحثين في القرن العشرين إلى أن المعلمين ينزعون فعلًا إلى تقدير الطلاب ذوي المظهر الخارجي الجذاب على نحو أفضل من تقدير الطلاب ذوي المظهر غير الجذاب أو الأقل جاذبية[٥].

(١) انظر مصدر سابق، ص٢٤٥.
(٢) انظر صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٤٦٩.
(٣) انظر الحث على حفظ العلم: ابن الجوزي، ص٢٧.
(٤) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٧٤/١٦.
(٥) انظر علم النفس التربوي: عبد المجيد نشواتي، ص٢٥٤.

المطلب الرابع

القدرة العقلية

لقد اختلف العلماء على مر العصور حول المعنى الحقيقي للقدرة العقلية، وعلى الرغم من تعدد التعريفات حولها، إلا أنه يمكن تحديد المعاني المشتركة التي تسود معظم هذه التعريفات وحصرها في ثلاثة، وهي: القدرة على التفكير المجرد، أو على التكيف مع المستجدات، أو على حل المشكلات[١].

وقد أشار ابن الجوزي إلى أهمية القدرة العقلية وإلى الآثار الإيجابية التي تسفر عن استخدامها في مواضع كثيرة من مؤلفاته، منها قوله: "فإنه إذا تم العقل لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل، وثمرة العقل فهم الخطاب، وتلمح المقصود من الأمر، ومن فهم المقصود، وعمل على الدليل، كان كالباني على أساس وثيق"[٢]، ومن الجدير بالذكر أنه كلما كان المعلم أو المربي يملك قدرات عقلية أكمل وأتم، كلما كان أقدر على استخدام نشاطات وأساليب تربوية أكثر انسجامًا وأشد فعالية في تحقيق الأهداف التربوية المنشودة.

وتتنوع القدرات العقلية لكن أشد أنواعها ارتباطًا بالعملية التربوية القدرة اللفظية، والمقصود بها قدرة المعلم أو المربي على اختيار الألفاظ المناسبة للمواقف التربوية المختلفة، حيث يقوم باختيار أنسب الكلمات من بين كافة الكلمات المقترحة، وهذا يتطلب مقدرة عقلية عالية، لا توجد إلا بعد ممارسة طويلة، وهو ما عبر عنه ابن الجوزي بـ "الصناعة" عندما قال: "إن الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب، ولا يتعرض لما يفسدهم، بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه، وهذا يحتاج إلى صناعة"[٣].

ومن خلال التأمل في هذا النص يمكن استخلاص النتائج التالية:

(١)أن الغرض من الوعظ هو إصلاح أحوال الناس.

(٢)أن الواعظ ينبغي له أن يتجنب ما يفسد أحوال الناس.

---

(١) انظر مبادئ علم النفس التربوي: د. عماد الزغول، ص١٣٩.
علم النفس التربوي: د. عبد المجيد نشواتي، ص١٠١.
(٢) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٢١١.
(٣) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٠٨.

(٣)يلزم الواعظ أن يستخدم من مفردات لغة الوعظ وأساليبه ما يحقق المطالب التربوية.

(٤)الإشارة إلى أن القدرة اللفظية الفعالة ليست في مقدور الوعاظ المبتدئين، لأنها تحتاج في تحصيلها إلى ممارسة طويلة يتولد في العادة منها ملكة تمكن الواعظ من اختبار الأساليب الأكثر تنوعًا وتأثيرًا، والأقدر على تحقيق الأغراض السابقة.

وقد أكدت بعض الدراسات ما نوه إليه ابن الجوزي حينما قام نورانس وباونت في عام ١٩٦٦ بدراسة أشارت إلى أن المعلمين الأكثر فعالية، يمتلكون قدرات عقلية تمكنهم من استخدام نشاطات وأساليب متنوعة في العملية التربوية تميزهم عن غيرهم(١).

المطلب الخامس

الدافعية

يشير مبدأ الدافعية إلى اتجاه أو حالة عقلية تبين مدى رغبة الفرد في الإنجاز والنجاح(٢)، وبالتالي فهي مرادفة لمعنى الهمة، ويعتقد ابن الجوزي أن الهمة فطرية، وأنها هي الباعث لطلب معالي الأمور، وأنها تتباين من شخص إلى آخر، ويرى أن من سعادة طالب العلم أن يولد وقد رزق همة عالية، حيث يقول: "... غير أن للطالب المرزوق علامة، وهو أن يكون مرزوقًا علو الهمة، وهذه المهمة تولد مع الطفل، فتراه في زمن طفولته يطلب معالي الأمور"(٣).

وقد جاء في بعض الأحاديث ما يدل على أن أصل هذه الهمة فطرية، فمن ذلك قول الرسول ن: "خير الأسماء عبد الله، وعبد الرحمن، ونحو هذا، وأصدق الأسماء الحارث وهمام، حارث لدنياه ولدينه، وهمام بهما، وشر الأسماء حرب ومرة"(٤)، وهمام على وزن فعال، وهي من أوزان المبالغة، بمعنى أن الإنسان

(١) انظر علم النفس التربوي: د. عبد المجيد نشواتي، ص٢٣٣.
(٢) انظر علم النفس التربوي: عبد المجيد نشواتي، ص٢٠٦-٢١٩.
وانظر مبادئ علم النفس التربوي: عماد الزغول، ص٢١٧.
(٣) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٨٣.
(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة: الألباني ٦٠٧/٢

كثير الهم بالأمور بفطرته، وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة ما أشار إليه ابن الجوزي من حيث تباين الأفراد في هذه الهمة والتي يسميها التربويون الدافعية، وإلى ارتباطها ببعض الأنماط السلوكية مثل المبادأة، والمثابرة[١].

ويمكن تعزيز دافعية التحصيل عند الطلاب باستثارة اهتماماتهم وتوجيهها حسب الدراسات الحديثة، وهذا ما حرص عليه ابن الجوزي حين بعث بنصيحته إلى ابنه، يستحثه حين رأى منه فتورًا عن طلب العلم، ويستثير اهتمامه حيث يقول: ".... وإني لأذكر لك بعض أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي... فإني أذكر نفسي ولي همة عالية وأنا في المكتب ابن ست ستين، وأنا قرين الصبيان الكبار، وقد رزقت عقلًا وافرًا في الصغر يزيد على عقل الشيوخ"[٢]. ويستثير همته في موضع آخر فيقول: "... ولم أقنع بفن من العلوم، بل كنت أسمع الفقه، والوعظ، والحدث... ثم قرأت اللغة، ولم أترك أحدًا ممن يروي ويعظ، ولا غريبًا يقدم إلا وأحضره..."[٣].

ويرى ابن الجوزي أن الهمة هبة من الله للإنسان، وأنه من سالقبيح بالعاقل ألا ينتهي إلى غاية ما يمكنه من تحقيق غاياته، فيقول: "ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد، رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير أنه إذا لم يكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن"[٤].

المطلب السادس

إصلاح المزاج

كثيرًا ما يؤكد ابن الجوزي على إصلاح المزاج، ويعتبره من الأصول العظيمة في التحصيل العلمي، ومن المعلوم أن الذهن إذا تشتت لم يتمكن طالب العلم من تحصيل الاستفادة المرجوة، لذا نرى ابن الجوزي يرشد إلى عدة أساليب لإصلاح المزاج، منها أساليب مكانية، فيقول: "ولا يحمد الحفظ بحضرة خضره

(١) انظر علم النفس التربوي: عبد المجيد نشواتي، ص٢٢٤.
(٢) ..... الكبد: ابن الجوزي، ص٤٦.
(٣) مصدر سابق، ص٤٧.
(٤) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٨٠.

على شاطئ نهر، لأن ذلك يلهي، والأماكن العالية للحفظ خير من السوافل"[١]، إلى أساليب زمانية مثل وقت الأسحار وأنصاف النهار وأن يكون طلب العلم حال الصبا وما قاربه من أوقات الزمان[٢]، إلى أساليب غذائية تزيد في الحفظ مثل: الزبيب والعسل[٣].

ويشبه ابن الجوزي البدن بالراحلة، وبالتالي لابد أن ينظر لها في الأصلح من الأطعمة والأشربة، ومن كل ما يؤذيها، ولا يجهدها بالسير المتتابع، وكل ذلك حتى لا يعكر على صفو مزاجها، ويشتت همها، وفي حال التعب والملل فيرشد إلى الأسلوب الترفيهي المباح، ويوضح أن في ترفيه النفس فائدتان: الأولى تثبت المحفوظ، والثانية تجدد القوى العقلية والنفسية لتعمل من جديد بنشاط ورغبة[٤]. وقد حذر النبي ن من متابعة الجهد الموصل إلى الملل بقوله "مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا"[٥]، لأن في حال الملل يتشتت الفكر ويتغير المزاج، وجمع الفكر وصلاحية المزاج أمور نفسية مطلوبة ومأمور بها حتى حال العبادة.

ومن الأساليب التي أرشد إليها ابن الجوزي في جمع الفكر العزلة، وترك جليس السوء، حيث يقول: ومن أراد اجتماع همه وصلاح قلبه فليحذر من مخالطة الناس في هذا الزمان..."[٦]، ويأمر ابنه بالعزلة، ويوضح أنها أصل كل خير بقوله "وعليك بالعزلة فهي أصل كل خير، واحذر من جليس السوء..."[٧].

والخلاصة أن مراعاة هذا المبدأ مراعاة دقيقة فيه تحقيق للأهداف التربوية المرجوة بأسرع وقت، ولما كانت الأمزجة والميول تختلف من شخص إلى آخر فينبغي مراعاتها مراعاة تامة من حيث اختيار الطرق والأساليب السليمة في إصلاحها غاية الإصلاح.

---

(١) مصدر سابق، ص١٨٠.
(٢) مصدر سابق، ص١٨٠.
(٣) الحث على حفظ العلم: ابن الجوزي، ص٣١.
(٤) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٨٦، ٢١٤.
(٥) .
(٦) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٣٦.
(٧) .....: ابن الجوزي، ص٥٥.

المطلب السابع

الجمع بين العلم والعمل

إن الغاية المقصودة من العلم والعمل معًا هي صلاح القلب، بطاعة الله وخشيته، وصلاح القلب صلاح لبقية الجوارح، وليس العلم بمجرد صورته يحقق ذلك، وبالتالي لا يغدو العلم نافعًا إلا أن يترجم بالعمل الصالح، وهذا ما أكد عليه ابن الجوزي في مواضع كثيرة، مثل قوله "... وليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به"(١). وهذا هو مفهوم العلم المطلوب بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ﴾(٢)، وقد أنكر الله تعالى على طائفة وقفت مع صورة العلم ولم تعمل به فقال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

ويرى ابن الجوزي أن توفير بيئة للمتعلم يستحضر من خلالها صور متنوعة لزهد السلف الصالح على تسهيل الجمع بين العلم والعمل حيث يقول "رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين...."(٤)، ذلك أن السلف الصالح تناولوا مقصود العلم وتذوقوا معناه، ولم يقفوا مع صور الأفعال، فالفضيلة الكاملة عند ابن الجوزي إذن هي الجمع بين العلم والعمل، ولا تتيسر حسب رأيه إلا لذي الهمة العالية التي تسعى إلى الكمال، ولا يرى أحظى بالكمال من التابعين ومن بعدهم إلا أربعة وهم: ابن المسيب، والحسن، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، يقول ".. وقد كانوا رجالاً. وإنما كانت لهم همم ضعفت عندنا..."(٥).

تلك هي نظرة ابن الجوزي إلى مفهوم العلم ولذلك نراه ينتقد علماء وعباد زمانه الذين أفسدوا هذا المفهوم، وأوجدوا فجوة عظيمة بين العلم والعمل، تركت آثارها التربوية السيئة في ذلك الزمان، وقد حمل ابن الجوزي نفسه على سد تلك

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص١٦٢.
(٢) سورة فاطر: آية رقم ٢٨.
(٣) سورة البقرة: آية رقم ٤٤.
(٤) صيد الخاطر: ابن الجوزي، ص٢١٤.
(٥) لفتة الكبد: ابن الجوزي، ص٥٩.

الفجوة، ففي أحد خطاباته لابنه يقول: "... وما ذل أبوك في طلب العلم قط، ولا خرج يطلب في البلدان كغيره من الوعاظ، ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئًا قط ..."(١)، ويخاطب الوعاظ مرشدًا فيقول "... فإن الواعظ – خاصة – ينبغي له أن لا يرى متبذلًا ولا ماشيًا في السوق، ولا ضاحكًا، ليحسن به الظن فينتفع بوعظه..."(٢). وبقوله: ".... ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل الماء عن الحجر..."(٣).

(١) مصدر سابق، ص٥٦.
(٢) مصدر سابق، ص٦٢.
(٣) مصدر سابق، ص٦١.

الخاتمـــة

أشرت في البداية إلى التعريف بابن الجوزي من حيث اسمه ونسبه ومولده، وشيوخه وتلاميذه، ثم أقوال العلماء فيه، وأشرت إلى بعض مصنفاته ثم وفاته.

ثم وضحت حاولت كاشفًا بعض المفاهيم التربوية، وبينت أهمية التربية والفكر التربوي، ثم أشرت إلى بعض ملامح العملية التربوية والمحتوى التربوي عند ابن الجوزي.

ثم خصصت آخر هذه الدراسة بالكشف عن بعض المبادئ التربوية عند ابن الجوزي ومجموعها سبعة، ومقارنتها أحيانًا بالمبادئ التربوية في العصر الحديث، وأشرت في آخر هذا المبحث إلى بعض القضايا التربوية التي أثارها ابن الجوزي وهي محل نظر في العصر الحديث.

وإني أوصي الباحثين في العلوم التربوية بالاجتهاد في استخلاص نظرية تربوية لابن الجوزي تتضمن بيان قواعدها ومبادئها، وبيان خصائصها، ورسم ملامحها، وذلك حتى يستفيد منها المختصون في تنشئة وتربية الأجيال المستقبلية.

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم.

-أصول التربية، د. طارق عبد الرؤوف عامر، مكتبة الكتب، ٢٠٠٨م.

-أصول التربية، د. عبد الغني العمراني، الطبعة الثانية، دار الكتاب الجامعي، صنعاء، ٢٠١٤م.

-أصول التربية الإسلامية، د. خالد حامد الحازمي، الطبعة الأولى، دار عالم الكتب، الرياض، ٢٠٠٠م.

-إعداد المعلم في الفكر التربوي والفكر التربوي الغربي المعاصر، أمين محمد أمين، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م.

-الأذكياء، ابن الجوزي، تحقيق أسامة عبد الكريم رفاعي، مناهي العرفان، بيروت، ١٩٨٦م.

-التربية وثقافة المجتمع، إبراهيم ناصر، دار الفرقان، بيروت، ١٩٨٣م.

-الثبات عند الممات، ابن الجوزي، تحقيق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن.

-الحث على حفظ العلم، ابن الجوزي، تحقيق فؤاد عبد المنعم، الطبعة الأولى، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

-تذكرة الحفاظ، الذهبي، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٤هـ.

-دراسات في الفكر التربوي الإسلامي، د. عبد الرحمن صالح، الطبعة الأولى، دار البشير، بيروت، ١٩٨٨م.

-ذم الهوى، ابن الجوزي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م.

-سنن الترمذي: محمد بن عيسى، تحقيق أحمد شاكر، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ١٩٧٥م.

-سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، ١٩٨٣م.

-سير أعلام النبلاء، الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.

-صحيح الجامع الصغير وزيادته، الألباني، المكتب الإسلامي.

-صحيح مسلم، مسلم بن الحسين، الطبعة الثالثة، إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٤م.

-صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

-علم النفس التربوي، د. عبد المجيد نشواتي، الطبعة الثانية، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٧م.

-لفتة الكبد، ابن الجوزي، المطبعة السلفية، القاهرة، د. ت.

-مبادئ علم النفس التربوي، د. عماد الزغول، الطبعة الثانية، دار الكتاب الجامعي، الإمارات، ٢٠١٢م.

-مختار الصحاح، محمد أبي بكر، ترتيب محمود خاطر بك،

-نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.